قصّة قصيرة

راوند

محمد المنسي قنديل

وصل الطلبة مبكّرين فامتلأ صمت الصباح بحياةٍ مفاجئة. تبدّدت أنفاس النعاس وذاب الضباب الذي كان نائماً على قطع القطن الملوّثة في حديقة المستشفى. نهض المرضى بغتةً وقد فوجئوا بأنّ الصباح قد جاء وهم مازالوا على قيد الحياة. المستشفى كلّه تسوده حالة الترقّب التي تسبق الامتحانات. ازدادت رائحة «السافلون» الذي يغسلون به الأرضيّات حتّى بدت نظيفةً ومليئةً بالتجاعيد.

عَبَرَ الطلبة ـ الصبيان والبنات ـ طرقة القسم في سرعة. كانت معاطفهم بيضاء قصيرة وأوراقهم كثيرة ووجوههم بريئة مشرئبّة وعيونهم لامعة. اتّجهوا إلى حالة رقم «٢٠» الراقدة على آخر الأسرّة. كانت تلك آخر حالة سوف تتمّ مراجعتها قبل الامتحانات. ساروا عبر الأجساد الهزيلة، تتابعهم عيون المرضى. حيوانات تجارب أنهكتها الاختبارات غير المجدية ومضاعفات المرض التي لا ترحم. قلوبٌ تنبض في وهنٍ دون أن تقدر على دفع ما تراكم فيها من دماء. أكبادٌ شقّقتها الألياف كأنّها أرضٌ عطشى. صدورٌ محتقنة تحاصرها وترقد عليها أغلفة من المياه فتعوق تردّد أنفاس الحياة فيها. والطلبة يواصلون عبور إشارات الموت الذي تبدّدت رهبته وبقيت شواهده.

و«جمعة» الحالة «٢٠» يرقب قدومهم نحوه. حين اقتربوا أسرع بإغلاق عينيه، أثرِ الحياة الوحيد الذي كان ظاهراً في وجهه. تشبّث بالغطاء وظلّ ساكناً. كان يدرك أنّ جسده كلّه سيغدو بعد لحظات فريسة لأصابعهم، وأنّ عليه أن يجزّ على أسنانه ويتحمّل كلّ اللمسات الخاطئة التي تسبّب له المزيد من الألم.

وقفت «ثريّا» رئيسة الممرّضات على باب القسم. رفعت يدها كي تمنع دخول عربة «الترولي» التي كانت تحمل وجبات الإفطار. قالت في حدّة:

ـ اليوم موعد مرور الدكتور «عرفة»، وسوف يثور إذا وجد بقايا الطعام بجوار أيّ سرير. لن يُصرف الطعام إلاّ بعد انتهاء المرور والمراجعة وكلّ شيء.

قالت مسؤولة التغذية:

ـ ولكنّهم سوف يموتون من الجوع.

قالت ثريّا: إنّهم موتى على أيّ حال.

شهق نائب القسم الدكتور «عبد الغفّار» من الدهشة وهو يتطلّع من النافذة. فوجئ بأنّ السيّارة المرسيدس البيضاء الفاخرة واقفة في مكانها. كيف وصل الدكتور «عرفة» إلى المستشفى دون أن يراه؟ ولماذا جاء مبكّراً على هذا النحو؟ أسرع خارجاً من الباب، عابراً الطرقة متقافزاً فوق السلّم لعلّه يكون أوّل من يستقبله ويلقي عليه تحيّة الصباح ويحمل عنه الحقيبة. ولكنّه لم يجده.. لا على السلّم.. ولا في البهو الخارجيّ.. ولا حتى عند الباب. وكان بقيّة أعضاء القسم الأعلى منه مقاماً وسنّاً واقفين هم أيضاً في الانتظار. وكان واضحاً أنّ الدكتور «عرفة» لم يظهر بعد.

واصل «جمعة» تظاهره بالنوم. لم يأبه لكلماتهم وضحكاتهم وهم يحاولون إيقاظه. كان متشبّثاً وملتفّاً بالغطاء. نظر مصطفى إلى «هادية» التي تقف بجانبه وهي تحتضن أوراقها. ابتسمت له مشجّعة فقرأ اسم الرجل على البطاقة المعلّقة بالسرير. ثمّ اقترب من المريض وهزّه برفق:

ـ عمّ «جمعة».. هذا ميعاد «الراوند».. المرور..

ولكن «جمعة» كان مصرّاً على أن لا يحسّ بالهزّة أيضاً. زادَ من انزلاقه تحت الغطاء حتّى أوشك أن يختفي. نظر «مصطفى» إلى «هادية» ثمّ عاد يهزّ «جمعة» بقوّةٍ أكثر وصوتٍ أعلى. وأخيراً فتح «جمعة» عينيه المتعبتين وهو يقول متوسّلاً:

ـ اتركوني في حالي. لم أنم طوال اللّيل وكانت روحي على وشك الخروج..

قال «مصطفى» في صوتٍ حاول أن يجعله مرحاً:

ـ الحمد لله انّك لم تمت. كنت ستسبّب لنا مشكلة كبيرة في المراجعة.

وزمّ «جمعة» شفتيه غاضباً. ضحك البعض ولكن «هادية» رمقت «مصطفى» في عتابٍ، فنظر إلى «جمعة» متلطّفاً وحاول أن يزيح الغطاء من عليه:

ـ هيّا يا عمّ «جمعة»، سيأتي الأستاذ حالاً ويجب أن نحضّر حالتك أوّلاً. أسئلة بسيطة وفحوص قليلة.

وردّ «جمعة» الغطاء حتّى رقبته ثمّ أفصح أخيراً عن نواياه:

ـ لن أكشف عن قطعة واحدةٍ من لحمي قبل أن يدفع كلّ واحدٍ منكم جنيهاً كاملاً.

. . وقف الدكتور «عبد الغفّار» متردّداً أمام باب الغرفة الذي يحمل لوحة «رئيس القسم». كان هناك ضوء ينبعث من تحت الباب. فهل الدكتور «عرفة» في الداخل؟. . كيف جاء ودخل دون أن يشعر به أحد؟ كيف أفلت من أنظار الأساتذة المساعدين والمدرِّسين والمعيدين والنوّاب الصغار؟ كيف ظلّ الصمت سائداً إلى الآن دون أن يرتفع صوته الهادر منتقداً كل شيء؟ طرق النائب الباب فلم يجب أحد. من المستحيل طبعاً أن يكون الدكتور «عرفة» قد نسي الضوء مشتعلاً منذ الأمس. إنّه لا يرتكب مثل هذه الأخطاء. عاود الطّرق ثمّ وضع يده على مقبض الباب. كان مفتوحاً. خطا إلى الداخل. شاهد الدكتور «عرفة» واقفاً في أقصى الغرفة بطوله الفارع، يتأمّل اللوحة المضيئة وقد وُضعتْ فوقها عدّة صور للأشعّة. مقاطع للصدر من كلّ الزوايا. والدكتور الكبير يتأمّلها مستغرقاً حتّى إنّه لم يسمع صوت الباب ولم يشعر بدخول النائب. . صامتاً. . جامداً. . كأنّه يحاول أن يستنطق الصور بظلالها السوداء، معتمة مثل الطيور جاثمة على ضوء خافت. والدكتور يحدِّق فيها كأنّها قد امتلكت مصير روحه بين مخالبها. . توقّف «عبد الغفّار» مذهولاً، خائفاً من التراجع، من أن يقوم بأيّ حركة تخدش ذلك الصمت الرهيب الذي يخيِّم على كلّ شيء. ثمّ التفت إليه الأستاذ ببطء. ارتجف النائب وهو يتوقّع ثورته العارمة. ولكنّ الأستاذ بدا كمن اكتشف عارياً. ظلّ يحدِّق فيه فاغر الفمّ ثمّ جلس مهدوداً فوق أحد المقاعد. تحرّك النائب مستعدّاً للتراجع وتمتم معتذراً:

ـ آسف يا سيدي. حسبت الغرفة خالية.

قال الأستاذ بصوت خافت ولكنّه باتر:

ـ أنت أعمى ولا شكّ.

ثمّ تذكّر أنّ صور الأشعة مازالت معلّقة فوق اللوحة المضيئة. نهض وانتزعها من مكانها بسرعة. انتهز النائب الفرصة وواصل تراجعه. ولكن صوت الأستاذ أوقفه:

ـ لم أطلب منك الانصراف. لقد رأيتني في لحظة غير مناسبة وسوف تتمنّى أنّك لم ترني. . ما اسمك؟

كان «عبد الغفّار» واثقاً من أنّه يعرف اسمه جيِّداً، ولكن خيِّل إليه أنّه ينطقه للمرّة الأولى. وربّما الأخيرة. أشار إليه الأستاذ في إهمال:

ـ اذهب. . حاول ألاّ تدعني أرى وجهك أثناء المرور.

تراجع «عبد الغفّار» بسرعة وأغلق الباب خلفه واستند إليه من الخارج محاولاً أن يلتقط أنفاسه. جرى مسرعاً إلى باب القسم. لم يبالِ بالنظرة المندهشة التي بدت على وجه «ثريّا». خلع معطفه وألقاه على الأرض. هتفت «ثريّا»:

ـ «الراوند» لم يبدأ بعد. ماذا حدث؟. .

لم يردّ عليها. أسرع عبر باب القسم والطرقة وهبط مع الدرج حتّى باب المستشفى الخارجيّ.

لم تعد هناك جدوى من المساومة مع «جمعة». هدّدوه بأن يشكوه للنائب ولرئيسه الممرِّضات ولكنّه كان يفهم أصول اللعبة جيِّداً فازداد إصراره. جذب الغطاء وأدار وجهه للناحية الأخرى كأنّه لا يحسّ بوجودهم. فتحت «هادية» حقيبة يدها ولكن «مصطفى» اعترض واتّهم «جمعة» بالاستغلال. كانت النقود التي ظهرت داخل حقيبة «هادية» تؤكّد أنّها قادرة على أن تدفع للجميع لا لنفسها فقط. تقدّم طالبٌ آخر كان قد ترك قيادة المجموعة «لمصطفى» طويلاً. قال «لجمعة» ينهي المناقشة:

ـ كلّ واحد سوف يدفع لك نصف جنيه. فاهم. ولا ملّيم زيادة.

ولا بدّ أنّه كان حازماً لأنّ «جمعة» أومأ برأسه منصاعاً. بدأوا يخرجون النقود ويضعونها على صدره. تلفّت «جمعة» ليرى إن كانت الست «ثريّا» تراه أم لا. وظلّ «مصطفى» واضعاً يده في جيبه، يتحسّس القطع المعدنيّة. لم يكن متأكّداً إن كانت تفي بالمبلغ أم لا. أخرجت «هادية» جنيهاً كاملاً ووضعته دون أن تأبه بأخذ الباقي. نظرت إلى «مصطفى» كأنّها تنهي الموقف. أحسّ الجميع أنّها قد دفعت بدلاً منه وانتهى الأمر. ولكن «مصطفى» اندفع في حنق مُخرجاً كلّ ما في جيبه من قطع معدنيّة ونثرها على صدر «جمعة» فرنّت في صوتٍ واهنٍ ثمّ ابتعد عن «هادية» ووقف في آخر المجموعة. لمّ «جمعة» النقود ودسّها تحت الوسادة في سرعة. ثمّ ابتسم حتّى ظهرت أسنانه الصفراء المُفَلَّجة وقال في صوتٍ قويٍّ مرح:

ـ تحت أمركم يا دكاترة. .

بدأوا يسألونه ويكتبون بسرعة. استغرقت المساومة وقتاً طويلاً يجب تعويضه. ولكن «جمعة» كان أفضل ممّا توقّعوا. كان مريضاً محترفاً يستحقّ الثمن الذي دُفع فيه، عارفاً بدقائق الحالة التي يعاني منها: تطوّرات المرض وأعراضه ومضاعفاته بل مختلف طرق العلاج كذلك. كان يحفظ كلّ المصطلحات اللاتينيّة، يقولها بطريقةٍ معوجّة ولكن مفهومة. انهمكت «هادية» في الكتابة. لم ترفع رأسها لترى إلى أين ذهب «مصطفى». كان منزوياً يوشك على أن ينفصل عن بقيّة المجموعة. لم يكن يريد أن يسمعوا وقع تردُّد أنفاسه المحتقنة.

كانت «ثريّا» موقنة أنّ الدكتور «عرفة» في غرفته. كانت تشمّ رائحته، ورائحة الأطبّاء، ورائحة «السافلون»، ولكنّها كانت تدرك أنّها كلّها تخفي خلفها رائحة وحيدة هي رائحة المرض. مهما تحمّمت ووضعت من عطور تظلّ عالقة بها، ملتصقة بجسدها. منذ زمن بعيد فقد جسدها رائحته الخاصّة: النضارة التي كانت تفوح من كلّ خليّةٍ من خلاياها عندما تخرّجت من مدرسة التمريض. كانت مثل ملكة النحل لا يكفّ أطباء الامتياز عن مطاردتها. حتّى الدكتور «عرفة» نفسه زنقها ذات يوم في «كشك» الباطنة ومدّ يده محاولاً أن يفكّ أزرار معطفها الأبيض.: حتّى علقت بها الرائحة. وتراكمت داخلها. تخرّج الجميع وترقّوا. سافروا إلى بلاد الخليج وعادوا. وظلّت هي داخل أسوار هذا القسم. تراقب المرضى وهم يبدأون بالهذيان من الحمّى، ثمّ يتقيّأون من سوء التغذية، ثم ينتفضون إلى درجة الموت.

نهض المرضى من فوق الأسرّة يطالبون بالطعام المتأخّر. تحرّك المدرّسون والمعيدون في قلق وبحثوا عن نائب القسم كي يجهزّ حالة المراجعة فلم يجدوه. أُصيب «جمعة» بالإنهاك فكفّ عن الكلام وتركهم يعبثون بجسده كما يحلو لهم. زعقت «ثريّا» في المرضى آمرةً إيّاهم أن يعودوا إلى أسرّتهم وإلّا كتبت لهم «خروج». وجمع الطلبة أوراقهم واستطاع «جمعة» أخيراً أن يغطّي بطنه المنتفخ.

فُتح باب الغرفة وخرج الدكتور «عرفة» جامد الملامح، شاحب الوجه، كأنّه خارجٌ من جوف قبر. حدّق فيهم دون أن يراهم. توقّف عند باب القسم حتّى انتظم الجميع خلفه بالترتيب الوظيفيّ: الأساتذة المساعدون فالمدرّسون ثمّ المدرّسون المساعدون ثمّ المعيدون. اعتدلت «ثريّا» ونصبت قامتها وبرز نهداها للأمام حتّى أوشكا أن يعترضا طريق الدكتور «عرفة» الذي مرّ بها دون أن يراها.

تقدّموا في صمتٍ مهيبٍ إلى داخل القسم. الأسرّة متجاورة والمرضى متراصّون فوقها. توابيت تنبض بقدرٍ ضئيلٍ من الحياة. توقّفوا عند السرير الأوّل وبحثوا في غيظٍ عن النائب. تكوّم الطلبة ثمّ تسلّلوا في صمت إلى المدرّج الصغير الملحق بالقسم كي يأخذوا أماكنهم حتّى ينتهي الأستاذ من «الراوند». جلس «مصطفى» في المقعد الأخير وأنزل عينيه حتّى لا يرى «هادية» التي جاءت ووقفت أمامه وعلى وجهها ابتسامة صغيرة وهي تقول:

ـ هل هناك مكان بجانبك..؟.

أفسح لها مكاناً بجواره وقد ازداد ارتباكه. كان ثوبها قصيراً بعض الشيء. وأتاح له هذا أن يرى ركبتيها الناصعتين وهي تجلس أقرب ما تكون إليه. ورغم ذلك أحسّ أنّهما متباعدان. كانا يجلسان معاً ساعات طويلة وهو لا ينى يعدّ لها الكشاكيل والمذكّرات، ويكفيه في مقابل ذلك أن تتطلّع إليه مبتسمةً وأن تقول له «مرسيه» صغيرة وباترة. كان مصرّاً على أن يكون دائماً أوّل الدفعة. ولم يكن أمامه خيار آخر، ولا وقت ليقول لها كلمة خارج المقرّر.

هزّ الدكتور «عرفة» رأسه وهو يستمع إلى متابعة علاج الحالة. كانت النتيجة معروفة سلفاً: كلّها حالات جاءت بعد فوات الأوان، المضاعفات أوصلتها لدرجة اليأس، ولم يستبقها داخل المستشفى إلّا لضرورات الامتحان. كان الأستاذ غريباً هذا الصباح: لا يناقش، ولا يعترض، ولا يسفّه أراءهم كما تعوّد أن يفعل. يسير بشكلٍ آليّ من سريرٍ إلى آخر، يتأمّل أقنعة المرض فوق الأجساد المسّجاة بنظرات ساهمة. وكان الدور يقترب من «جمعة» الذي رقد متململاً فوق سريره. لم يكن عليه أن يبقى هنا. يجب أن تحضر النقّالة كي تأخذه إلى المدرّج الصغير ليستكمل الشرح هناك. ولكن مع غياب النائب لم يفطن أحدٌ إلى ذلك.. «جمعة» يعرف دوره جيّداً. قبل أن يصلوا إليه نهض واقفاً. ترنّح تحت ثقل بطنه الممتلئ. فوجئ الأستاذ بالمريض وهو ينتصب أمامه كأنّه قد بُعث من الموت. ارتجف الأستاذ عندما وجده يقترب منه، كأنّه يريد أن يسلبه شيئاً. رأى روحه الضعيفة الواهنة وهي ترفّ فيما بينهما. كانت حركة المريض الواهنة وجسده المتقوّس ووجهه الشاحب تقترب منه كأنّها تسدّ أمامه كلّ منافذ النجاة. تراجع ثمّ استند إلى حافّة السرير ثمّ تمالك نفسه كما يليق بأستاذ ونطق للمرّة الأولى منذ الصباح:

ـ كيف استيقظت هكذا.. كيف جرؤت على النهوض؟

قال جمعة متوسّلاً: أنا حالة المراجعة اليوم يا بيه.. ربّنا يخليك ليس لي ذنب.

أدرك الأستاذ أنّه مجرّد مريض من بين المرضى. أشار له في حزم أن يمضي مبتعداً. أوشك جمعة أن يتعثّر وهو في طريقه للمدرّج الصغير. حدّقت «ثريّا» في وجه الدكتور «عرفة».. ما هذه الرائحة التي تنبعث منه؟..

وصل جمعة إلى المدرّج الصغير ضعيفاً منكسراً. يسير على قدميه كأنّه يبحث عن مأوى. فقد السرير الذي كان مصدر قوّته. أصبح الآن أمامهم في حجمه الطبيعيّ. ليس لديه ما يتفاوض عليه. اكتشفوا مدى هزاله وقصر قامته وضخامة بطنه. ارتقى المنضدة المعدنيّة الموضوعة أمامهم، وتمدّد عليها. ثمّ جذب الملاءة الصفراء المليئة بالثقوب من أثر السجائر واستلقى محدّقا في السقف كي لا يحسّ ببقيّة العيون المسلّطة عليه.

خطا الأستاذ داخلاً المدرّج فساد الصمت. اتّجه إلى مكانه خلف المنضدة التي كان «جمعة» يستلقي عليها. ثمّ دخل بقيّة

«الممرّضين». تناثروا في المدرَّج حسب أهمّيتهم: الأساتذة المساعدون أكثر قرباً، يليهم المدرِّسون. وأمّا المعيدون فقد جلسوا في المقاعد الأخيرة بجوار «هادية» و«مصطفى». وعندما اكتمل الشكل أشارت «ثريّا» للتمرجيّة أن تدخل بفنجان القهوة وكوب الماء البارد إلى الأستاذ.

نظر الأستاذ إلى المريض المستلقي أمامه في إهمالٍ يشوبه الاحتقار. كان يحاول أن يتحرّر من هذه اللحظة الغامضة التي انتابته. وظلّ «جمعة» متحجّر العينين لا يرى إلّا الطلاء المتساقط. كان من المتوقّع أن يبدأ الأستاذ بدايته الساخرة، فيسخر من الطلبة والمرضى والأساتذة والتعليم المتهالك. ولكنّه ظلّ مقطّب الوجه. حدّق في الطلبة كأنّه اكتشف وجودهم للمرّة الأولى. حاول أن يتكلّم، أن يطرد الطيور السوداء الجاثمة على صدره. هتف في صوتٍ مختنق:

ـ من الذي أعدّ هذه الحالة؟..

لهجة متجهّمة وباردة أخافت الجميع فلم يرفع أحدٌ يده. حدّق فيهم بنظراته الصارمة فازداد خوفهم. أدركوا أنّ من يوقعه الحظّ بين يديه سيكون سخريةَ الجميع لأنّ الأستاذ لن يرحمه من المناقشة. أخرج غليونه من جيب معطفه وأشعله ببطء ونفث عدّة دفعات من الدخان قبل أن يهتف غاضباً:

ـ ما هذا؟ ألم يتكرَّم أحد منكم ويتفضّل بأخذ تاريخ هذه الحالة؟

أحسّوا بذنب مفاجئ وتلفّت بقيّة الممرضين للخلف يبحثون عمّن ينقذهم. توقّفت عينا الأستاذ عند «مصطفى». كان جالساً في المقعدِ الأخير رافعاً يده إلى أعلى. نظر إليه مدهوشاً وساخراً، كأنّه لم يكن يريد لأحد أن يمتلك الجرأة على رفع يده. هل كان هذا الطالب يحاول أن يتحدّى سلطته التي فرضها على الجميع؟. نفث غليونه وهو يهتف:

ـ أنت الشجاع الوحيد الموجود هنا. أنت الفأر الذي سيعلّق الجرس. اخفض يدك يا سيدي. سوف أختار أنا بنفسي.

أنزل «مصطفى» ذراعه ورمق «هادية» بنظرةٍ يائسة. ولا بدَّ أنّ هذه النظرة هي التي لفتت أنظار الأستاذ إليها. تأمّل وجهها الصغير المستدير وملامحها الدقيقة. كان فيها جمال من نوع خاصّ. شعرها مرفوعٌ إلى أعلى ومتجمّعٌ خلف رأسها كأنّها تريد أن تبرز كلّ ملامح الوجه.. هذا الوجه الجميل تتعامل معه صاحبته بذكاء. ترفع بصرها وترمق الجميع بنظرات ساهمة فيها نوع من التعالي والكبرياء. رفع الدكتور «عرفة» يده وشرع أصبعه ووجهه نحوها وقال بلهجة باردة حياديّة:

ـ دعينا نرى ما عندك أيّتها السيِّدة الصغيرة؟..

فوجئت «هادية». نهضت ثمّ جلست ثمّ عاودت النهوض مرّةً أخرى. لم تكن مهيّأةً لأن يحدث لها هذا في أحد أيّام الدكتور «عرفة» وفي آخر أيّام المراجعة. نظرت إلى «مصطفى». كان جالساً مشلولاً، شاعراً بالذنب، كأنّه هو الذي قادها إلى هذا الفخّ. أنزل الأستاذ يده وبقي على انتظاره. لم تدرِ كيف تعترض أن تتنصّل. الأنظار كلّها مركّزة عليها. نهض المعيدون بالفعل كي يفسحوا لها في الخروج. وهكذا لم تجد بدّاً من أن تحمل أوراقها المكتوبة بالقلم الرصاص وتضمّها إلى صدرها كأنّها تصنع منها درعاً من ورق.

اندفعت هابطةً فوق الدرج. شعرت أنّ دقّات حذائها تدوي في فضاءات شاسعة. تابعتها العيون حتّى وقفت أمامهما: الأستاذ والمريض. كان عليها أن تواصل سيرها حتّى تقف على الجانب الأيسر من المريض بجانب الدكتور «عرفة».

توقّفت ثريّا بالقرب من باب المدرج الصغير. ما أشدَّ ما شاخ الدكتور عرفة، وما أظهرَ عجزَه إذْ وقفت هذه البنت بجانبه!. لم تكن متفجّرة بالأنوثة مثلما كانت «ثريّا» في عزّ نضارتها. ولكنّها متفجّرة بالشباب الغضّ. جمالٌ لا تمنحه سوى فتوّة القلب. تحسّست «ثريّا» تجاعيد وجهها.. كيف توالت الأيام وتبدّدت سريعاً هكذا.. كيف توالوا عليها وامتصّوا رحيق عمرها؟ أحسّت بشيءٍ يلمس ذراعها. سرت فيها قشعريرة. التفتت. كان ما يلمسها أصابع أشبه بالمخالب الصغيرة. مريض صغير شاحب يحمل كلَّ أمراض الكبار يقف أمامها. تسلّل من قسم الأطفال وجاء إليها وهتف متوسّلاً:

ـ ربّنا يخليكي يا ستّي الحكيمة.. اصرفي لنا الفطار..

عيون المرضى كلّها معلّقة عليها. كان هو رسولهم إليها. يحمل الرائحة نفسها التي تربطهم جميعاً بها.. هل كان من الممكن أن يكون لها طفلٌ تعيسٌ مثل هذا الطفل؟ انحنت وحملته بين ذراعيها:

ـ يا عنيّا يا خويا.. يقطعني..

ابتعد الدكتور عرفة شأن أيّ رجل مهذّب كي يترك لـ «هادية» المجال لمواجهة المريض. ولكنّها كانت تحسّ أنّها دخلت مجاله. أحاطتها هالات دخان التبغ المنبعثة من غليونه. نظرت إلى أوراقها المكتوبة بالقلم بالرصاص وبدأت تقرأ تاريخ الحالة من الماضي إلى الحاضر.. تستعرض رحلة الوهن والألم من بدايتها. «جمعة علي أبو حسين. ٥٥ عاماً. فلّاح. متزوّج وله أربعة أولاد.. الأعراض السابقة..» كان جمعة قد كفّ عن التحديق في السقف وركّز بصره عليها. لم ينس أنّها الوحيدة التي أعطته جنيهاً كاملاً. كان يفهم بعض المصطلحات التي تقولها ولكنّه لم يكن متأكّداً من أن جسده يستوعبها جميعاً. أحياناً عندما يدسّون أصابعهم تحت حافّة قفصه

الصدريّ ليتحسّسوا مقدار حجم الكبد، أو يدقُّون على أضلاعه ويثنون جلد بطنه ويضغطون على ساقه المنتفخة، أحياناً كان يخيّل إليه أنَّ هذا ليس جسده وإنّما يخصّ جثّة أخرى غريبة عنه. وزمجر الأستاذ:

ـ بهذه الطريقة لن تسمعي شيئاً. هذا فحص وليس «طرقعة» أصابع.

بدأ يحاصرها بأسئلة سريعة. حاول أن يربكها وينتصر عليها وينتقص قليلاً من هذه الكبرياء.. ولكنّها ظلّت تقاوم حتّى جلس على المقعد وتركها تواصل بقيّة إجراءات الفحص. وجد نفسه غارقاً في تأمّلها، في سماع نبرات صوتها. كفّ عن التدخين وبدأت رائحتها هي تفرض وجودها عليه وتحيط به. ما أشدّ ما تقف منتصبة دون انحناء! صدرها منتصب، ومؤخّرتها الصغيرة منتصبة وحتّى السّمانتان من خلاف ساقيها منتصبتان. عصارة الحياة التي تفور من داخلها تمنحها شيئاً من سموِّ الأشجار. تمارس سيطرتها على الجسد المسجّى أمامها. صوتها قويّ وحركاتها بسيطة وآسرة بلا تصنّع. فهل تستطيع أن تمنحه شيئاً من فوران حياتها؟..

قفز المرضى في خطوات فرحة وهم يتناولون صواني وجبة الإفطار. قشّروا البيض نصف الفاسد في جذل. دعا واحدهم الآخر إلى قِطع الجبنة «النستو». ونفضوا الأرغفة ليزيلوا ذرّات «الردّة» من عليها. نهض واحدٌ منهم وذهب إلى فراش «جمعة» وفتّش تحت الوسادة والمرتبة فلم يجد شيئاً. عاد إلى سريره خائباً لأنّه لم يجد كيس اللبن الخاصّ به. وظلّت ثريّا واقفة تشاهد فوضى الطعام السعيدة وقد أحسّت أنّها استطاعت أخيراً أن تنتقم من الدكتور «عرفة».

توقّفت «هادية». توقّف الكلام في حلقها. لم تدرِ أهو حقيقةٌ ما تراه أم أنّها تتخيّل. كانت هناك يدٌ قد لمست جسدها من الخلف. لمسة قصيرة ولكنّها مؤكّدة. نظرت إلى المريض الراقد مستكيناً. يداه ممدّدتان بجانبه. نظرت إليهم جميعاً. كانوا يراقبون حيرتها ولحظات ارتباكها. حاولت أن تعاود الكلام، ولكنّها أحسّت باليد مرّةً أخرى. التفتت في فزع. قابلت وجه الأستاذ، بارداً ومجعّداً ومصمّماً. تكسّرت الحروف على شفتيها وخرجت منها أصواتٌ غير مفهومة. نظرت إلى حيث يجلس «مصطفى». ما أبعَدَه! حاولت أن تتحرّك مبتعدةً ولكنّ الأصابع غاصت في لحمها أكثر. كانت المنضدة النائم عليها المريض تحجب ما يحدث عن أنظار الجميع.. جاءها صوت الأستاذ بارداً:

ـ.. اكملي..

هل تصرخ بصوتٍ عالٍ؟ نظرت إلى المريض، إليهم. واليد صعدت إلى أعلى قليلاً فأوشكت أن تتقيّأ. كان الأستاذ مغمض العينين. يبدو غائباً عن الوجود. متشبّثاً بآخر رباط للحياة. لعلّ قليلاً من الدفء يتسرّب إلى داخله. كانت يداه قد انفصلتا عنه. أخذت تسعى مثل نبات أعمى نحو مصدر الضوء. هل هناك بقيّة من أمل؟ كان جسد «هادية» يتراخى. تنسحب الروح من حلقها. ثمَّ أفاقت على صوت شهقة. «جمعة» يشهق كأنّه يحتضر. عيناه مفتوحتان، فيهما فزع لا حدّ له. أحسّت أنّها تستعيد روحها المسلوبة. نزعت نفسها من الأصابع التي تحاول أن تقبض عليها. خرجت تعدو من وراء المنضدة. كانت تكتم دموعها بصعوبة. هرعت خارجة من المدرَّج. لم يجرؤ أحد على التحرّك. نهض الأستاذ واقفاً. نظر إليهم كأنّه يفيق من نومٍ عميق.. ثمَّ نظر إلى المريض المسجّى أمامه. تذكّر الطيور السوداء، ووجه النائب المفزوع. لم تعد الفتاة موجودة وتبدّد كلّ شيء. تأمّل وجه «جمعة» والنظرة التي في عينيه، مال نحوه وقال له في صوتٍ خافتٍ لم يسمعه سواهما:

ـ لا جدوى من بقائك في المستشفى. حالتك ميؤوس منها وسوف أكتب لك خروجاً اليوم.

١٩٩٢